المحاضرة الثانية عشر حول:

تابع لمحاضرة

العلماء ورجال الثقافة في الجزائر خلال العهد العثماني

01/- علاقة العلماء في الجزائر بالسلطة العثمانية:

لقد أدرك العثمانيون منذ البداية مدى نفوذ العلماء خاصة المرابطين ورؤساء الطرق الصوفية على السكان، خاصة بعدما وجدوا أن ثلثي البلد تحت سيطرتهم، كما أدركوا الدور المهم للعلماء عند رد الهجمات الأجنبية، وتعبئتهم للناس فرأوا أن نفوذ مرابط يسهل عليهم الأمر أكثر من عدد كبير من الجيوشولهذا اعتمد العثمانيون على المرابطين كثيرا خاصة الطريقة الشاذلية والقادرية، وقد وضعوا لهذا سياسة إرتكزت على أساس وأسس تحول دون أي نشاط عدائي ضدها من طرف هؤلاء العلماء ومن بين هذه الأسس نذكر مايلي:

- ❖ الإبقاء على الاتصال مع رجال الدين، وتقديم ضمانات لهم وامتيازات.
- ❖ إظهار الاحترام لهم وتجنب أي ضرر ضد الأضرحة والزوايا واعتبارها ملاذ للفارين.
- ❖ مراقبة شيوخ الزوايا ومقدمي الطرق بحذر بهدف تجنب عدائهم؛ خاصة في المناطق الغير مراقبة أو البعيدة عن أعين المحلة.
- ❖ أيضا سعت السلطة العثمانية إلى إقناع شيوخ ومقدمي الطرق بمدينة الجزائر بالعدول عن إثارة القبائل المعادية للسلطة.
- ❖ سعت السلطة العثمانية إلى التفاهم مع العلماء منهجتا في ذلك سياسة مدروسة مسبقا حسب المواقف والمناطق ومختلف الأقاليم.

ففي المناطق الحضارية (المدن) تمتع العلماء والمرابطين بوضعية مريحة مقابل حيادهم في الأمور السياسية وإرضاء السلطة العثمانية، وكذا بعدهم وعدم تدخلهم في الأمور العامة؛ إلا لتأييد السلطة، وهذا ما يفسر انعزالهم عن السلطة كليا، بالإضافة إلى نيلهم نسبة من غنائم القرصنة والهدايا والمناسبات، هذه الإمتيازات تحوت فيما بعد إلى امتيازات من النوع الروحي؛ فمثلا السلطة دعمت وساندت زاوية الثعالبي المشهورة لكونها بمركز السلطة(مدينة الجزائر) وكذلك باعتبار أن الثعالبي من أبناء المنطقة

ولكل هذه الأسباب تقلص دور العلماء في الجانب السياسي بالمدن كفئة اجتماعية، فمعارضتهم للسلطة كانت أقل مما كانت عليه بالريف؛ حيث أن الزوايا التي كانت توجد في المناطق الغير مراقبة والتي لها تأثير في المدن ربطت علاقات صداقة تمثلت في الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة وعومل شيوخها ومقدموها باحترام بسبب نفوذهم كالطريقة الرحمانية.

أما في الريف فقد اختلف الأمر عما كان في المدن، حيث كان أكثر تعقيدا، فقد كان الأتراك (السلطة العثمانية) في البداية مضطرين للرضوخ لمطالب هذه الفئة وخاصة وأنهم لم ينتصروا على الإسبان ولم يبسطوا حكمهم بين الأهالي إلا بمساعدة أغلبية مشايخ الزوايا الذين ركزوا بالمقابل على قوتهم المالية. وبما أنه كان بالريف من المرابطين من توجه نحو التصوف الروحي ومنهم من كان يتزعم قبيلة أو عدة قبائل واهتمامه كان الأمور الدنيوية؛ لذا فظهور التركي كان كمنافس له أكثر منه كبطل للإسلام وعليه كان بالريف منهم من ساعد العثمانيين إما كوسطاء أو كمصلحين، وهناك من وقف موقفا غامضا اتجاه السلطة العثمانية.

02/- الدور الاجتماعي للعلماء في الجزائر خلال العهد العثماني:

من أهم الأدوار الاجتماعية التي لعبها العلماء الجزائريين خلال العهد العثماني لكسب ثقة العثمانيين من جهة، وثقة الأهالي من جهة أخرى دور الوساطة بين الطرفين لتسوية الخلافات وتفادي الصراعات التي بدأت تظهر بوادرها من الأهالي ضد السلطة العثمانية في تلك الفترة حيث كانوا القوة الوحيدة التي تلجأ إليها السلطة العثمانية لكسب طاعة الرعة خاصة في المناطق الغير خاضعة كمنطقة القبائل،كما إستغلت السلطة النفوذ الروحي للعلماء والمرابطين في الأوساط الشعبية عند استخلاص الضرائب التي كانت تلقى رفض كبير من طرف الأهالي، وبالإضافة إلى ما سبق ذكره فقد إستغلت السلطة العثمانية العلماء ذوو النفوذ الكبير ومكانة مرموقة في أمور سياسية خارج البلاد، فقد كانوا يرسلون كمبعوثين عند نشوب الحروب بين الجزائر والمغرب؛ إذ كانت أنذاك الصراعات والمشكل دائمة بين الطرفين، وهناك كان الدور البارز للعلماء في الصلح بينهما.

وبرغم استعانة السلطة بهم في أمور داخلية وخارجية تعلقت بسياسة السلطة العثمانية لم يرتبطوا بهم بصفة رسمية؛ التي قد تهدد مصالحهم في المستقبل بل أحاطوهم بالاحترام والحذر من ناحية أخرى، لأنهم كانوا يلجأون إليهم في الأوقات الصعبة ولتجنيد الأهالي للوقوف مع السلطة العثمانية.

03/- هجرة العلماء في الجزائر وأثارها المتخلفة على الحياة الثقافية خلال العهد العثماني:

تعتبر ظاهرة الهجرة من الجزائر وإليها من المظاهر الهامة في التواصل الثقافي والحضاري بين الجزائر وأقطار البلاد الإسلامية؛ خلال العهد العثماني وقد ساهمت هجرة الهلماء والطلبة في الحركة التعليمية.

3-1- هجرة العلماء من الجزائر:

عرقت الجزائر خلال العهد العثماني هجرة العلماء والطلبة إلى بلاد المةغرب الأقصى؛ وخاصة خلال القرن 16م ويعود ذلك إلى القرب من جهة، ومن جهة أخر إلى كثرة العلماء في المغرب والمعاهد والمدارس العلمية؛ خاصة جامع القرويين ونخص بالذكر علماء الغرب الجزائري، وبالأخص علماء حاضرة تلمسان الذين كان توجههم بشكل كبير نحو المغرب الأقصى خلال هذه الفترة(الحكم العثماني) ومنهم من استقر هناك.

3-2- هجرة العلماء إلى الجزائر:

لقد كانت معظم أقطار البلاد العربية تابعة للدول العثمانية، بحيث كان التنقل بين هاته الأقطار (البلاد العربية) حالة عادية خلال العصر الحديث، وقد كان أكثر حركة لهجرة العلماء والطلبة نحو الجزائر تأتي من بلاد المغرب الأقصى والملاحظ أن هؤلاء العلماء استقر الكثير منهم في الجزائر، بحيث يعود ذلك إلى الموقع الإسترتيجي للجزائر في الطريق بين المغرب الأقصى وبقية البلاد الإسلامية؛ سواء في طريق الذهاب أو الإياب.

والملاحظ كذلك هو القرب بين البلدين من ناحية، ومن ناحية أخرى الصلات والروابط الاجتماعية والروحية والعرقية بينهما، لذلك نجد أن جل العلماء المغاربة يفضلون الاستقرار بالجزائر.

ومن بين العلماء المغاربة الذين استقروا في الجزائر فترة من الزمن وتحديدا في مدينة تلمسان:

- أبو القاسم الزياني صاحب الرحلة الزيانية والمتوفي في سنة 1833م.

وخلاصة القول يمكننا الإشادة بالدور الذي لعبته هجرة العلماء في الحركة الثقافية بالجزائر، فقد ساهمت في نشر مظاهر المعرفة والعلم من خلال تبادل العلوم المختلفة والحصول على الإجازات العلمية من مختلف المعاهد الإسلامية، وكذلك القيام بحلقات الدروس في الفقه والنحو والتفسير، بالإضافة إلى العلوم العقلية في مختلف حواضر البلاد الإسلامية، وبذلك أن هذه الفترة (الحكم العثماني بالجزائر كثرة ظاهرة الهجرة للعلماء منها وإليها من مختلف أقطار البلاد الإسلامية لشغف العلماء الجزائريين وغيرهم في نشر العلم والمعرفة أو في الحصول عليها.

قائمة المراجع المعتمدة في المحاضرة:

01/- أبو القاسم سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول، المرجع السابق.

02/- نصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، تراجم مؤرخين وحالة جغرافيين، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1999.

03/- ضيف الله عقيلة، النظام القانوني ونظم تطبيق الشريعة في العهد العثماني، مجلة بحوث، العدد الرابع، 1997.

04/- بن خوجة محمد، صفحات في تاريخ تونس، تحقيق الجيلالي ابن الحاج يحي، الساحلي حمادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986.

05/- شدري معمر رشيدة، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر في فترة الدايات(1830/1671) أطروحة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر، 2006/2005.